

لقد نفذ الزاد القليل الذى فى الجراب ، وكذلك نفذ ما فى السقاء ، وتلاحقت صيحات الصغير وبدأ يتلوى من ظمأ وجوع ، فكرته أمه وانطلقت تبحث له عن قطرة ماء . .

وحملتها قدماها إلى جبل « الصفا » هناك ، فصعدت فوقه لتشرف من عل على الوادى ، راجية أن ترى إنساناً أو أثراً لحياة ، فلما لم تر إلا الخلاء المقفر ، هبطت إلى الوادى وهولت حتى أتت « المروة » فعرجت على السفح لعلها ترى أحداً ، ولا أحد . . وظلت هكذا تهول من هنا إلى هناك ، ساعة بين الصفا والمروة . مرتين ، وثلاثاً ، وخمساً ، وسبعاً ، حتى نال منها الجهد وأشرفت على الهلاك من ظمأ وإعياء . فتهاكت على الصخور منهوكة القوى لا تجرؤ على الدنو من صغيرها المعذب .

وإذ تنهى إليها أنينه ، وغطت رأسها بلفاعها كيلا ترى ولا تسمع فقد كان سماع حشرجته وهو يختصر ، ورؤيته وهو يموت ، أقسى مما تحمله بشرتها أو تطيقه أمومتها !

* * *

ووجمت السماء حيناً وهى تطل على المشهد الفاجع : مشهد رضيع يهلك ظمأ وأم تأبى أن تتزود منه بنظرة وداع ، بل تصد عنه وبها من اللهفة عليه مثل الجنون ! وتجهمت الصخور وهى تردد صدى صوت الأم الواهن : « لا أنظر موت الولد » مختلطاً باللهاث والأثين ، وبدا كأن شبح الموت يلقي على الوادى ظلاله الكئيبة وهو يدنو من الطريدين المعذبين ، ليتزج منها الحفقة الأخيرة من الحياة !

لكن شعاعاً من رحمة الله لاح بغتة أمام « هاجر » فزحفت إلى حيث هداها الله ، وثم . . . ألفت نبعاً يفيض ماء ! وأكبت عليه تغرف منه ، حتى إذا ردت إليها الروح أحست باللبن يملأ ثديها ، فألقمته طفلها المشرف على الهلاك .

ودبت الحياة فيه من جديد ، وعاش ليعمر هذه البقعة المقفرة بنيه وأحفاده . واستجاب الله لدعاء إبراهيم فإذا أفئدة من الناس تهوى إلى الوادى غير ذى الزرع ، وإذا النبع - بئر زمزم - يجذب القوافل فى آثار الرعاة ، فتغدو « مكة » على مر السنين المركز الرئيسى للتجارة فى شبه الجزيرة .

عاش إسماعيل ليرفع هو وأبوه القواعد من البيت العتيق ، فيكون قبلة أنظار العابدين فى شتى أقطار الأرض ، ومهوى أفئدتهم فى كل حين ، يججون إليه من الشرق والغرب ،